أسلوب جمع العظمة في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور سعاد يلديريم

جامعة مرمرة إسطنبول ـــ تركيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبِعه بإحسان إلى يوم الدين،

أما بعد:

من الحقائق الثابتة أن الله سبحانه وتعالى واحد أحد ومع ذلك أشار إلى ذاته بصيغة الجمع في كثير من الآيات القرآنية. وهناك كثير من الناس من يحتاج إلى بيان هذه الظاهرة، ومقالنا هذا يستهدف إيضاح هذه الظاهرة، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يعينني على تحقيق هذا الهدف.

استعمال جمع العظمة أسلوبٌ من الأساليب المختلفة يفيد عظمة الربوبية. وأكثر ما يَستعمل هذا الأسلوبَ الملوك والحكّام. استعمال أسلوب العظمة مع أن الفاعل واحد، يكثر في اللغة والبلاغة العربية. وقد ذكر جمع العظمة 1825 مرة في 1114 آية، متعلقا بمائتين وثلاثين موضوعًا في القرآن الكريم(1). يشاهد قارئ القرآن الكريم، أن القرآن عندما يذكر أفعال الله تعالى قد ينتقل من الغيبة إلى الخطاب، أو من المفرد إلى الجمع بعد أن صرّح أن الله سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله. لأن وحدانية الله تعالى واضح قطعي بدون أي تردد. وهناك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى الله تعالى بضمير المفرد ثم يلتفت وينتقل من المفرد إلى الجمع في نفس الآية، وإليكم بعض الأمثلة من بين أمثلة كثيرة:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأَنْعام:98)
- ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(2)
- ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(3)
- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(1)

---

(1) محمد منير بَنَكْ، خصائص جمع العظمة المتعلقة بالألوهية في القرآن الكريم (باللغة التركية)، رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة دجْلَة (ديار بكر)، سنة 2006، ص: 215.

(2) الآية 134 من سورة طه.

(3) الآية 11 من سورة الزخرف.

- ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(2)
- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(3)

ونشاهد أحيانًا يسند نفس الفعل إلى ضمير العظمة أي المتكلّم مع الغير تارة وإلى ضمير المتكلم وحده أخرى للدلالة على أن الفاعل واحد(4): مثل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(5)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾(6).

وبما أن أهل الجاهلية كانوا يعرفون هذا الأسلوب في الأدب العربي لم يفكّروا في أن يجدوا طريقًا إلى الشرك من استعمال القرآن لهذا الأسلوب. ولو كانت تسمح اللغة لهذا الاستدلال لكانوا يحاولونها بدون شك. وهناك رواية عن نصارى نجران أثناء زيارتهم للمدينة المنوّرة سنة تسع بعد الهجرة، فإنهم لّما لم يجدوا أي دليل عقلي لعقيدة التثليث، أرادوا أن يستدلّوا من هذا الاستعمال.(7) وهذا استدلال ضعيف جدًّا.

ولاستعمال هذا الأسلوب عدة نكَت مثل:

1-تشريف الله تعالى لبغض عباده

2-الإشارة إلى عالَمية القرآن الكريم

3-تجلّي الأحَدية في الكثرة

4-إعطاء الكلام تأثيرا قويًّا

5-عجز الصيغ البشرية عن التعبير عن أفعاله تعالى

6-توظيفه تعالى لبعض الوسائط في بعض إجراءاته

7-إفادة أهمّية المفعول بجانب أهمّية الفاعل

8-إفادة التأكيد

والآن نريد أن نفصّل هذه النكت فنقول:

---

(1) الآية 53 من سورة طه.

(2) الآية 60 من سورة النمل.

(3) الآية 10 من سورة لقمان؛ وانظر كذلك إلى الآيات 5 / 38 / 99 / 106 من سورة الأنعام؛ والآية 27 من سورة فاطر؛ وآيات كثيرة.

(4) نفس المصدر، ص:216.

(5) الآية 56 من سورة الذّاريَات.

(6) الآية 12 من سورة الْمُؤْمِنُون.

(7) قال متحدّثهم: "نحن نرى قول الله في القرآن مثل "فعلنا" و"أمرنا" و"خلقنا" و"قضينا"؛ ولو كان واحدًا لكان ينبغي له أن يقول "فعلتُ" و"أمرتُ" و"خلقتُ" و"قضيتُ". (سيرة ابن هشام، 573/1؛ وتفسير ابن كثير عند تفسيره لآية 60 من سورة آل عمران).

1-تشريف الله تعالى لبعض عباده: فمثلاً نرى سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(1)، لا شكّ أن القرآن كلام الله وأن الله متفرّد في هذا الصدد. فالله أرسل القرآن إلى الرسول بوساطة جبريل عليه السلام. ومما لا شك فيه أن أكبر حادثة في تاريخ البشرية هو إنزال القرآن الكريم. والقرآن حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة. ولذلك يجب أن يصل إلى جميع بقاع الأرض شبرًا شبرًا وينتشر فيها. وثمة عدة مراحل لتبليغ القرآن، مثل تبليغ جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وتلقّي النبي للقرآن، ووعيه وحفظه وتبليغه إلى صحابته وصحابياته(2) وإملائه على كتّاب الوحي، وجمعه للسور التي تم وحيها ومقابلته ومدارسته مع جبريل لمتن القرآن في كل أشهر رمضان، وتربية وإعداد المعلمين للقرآن من أصحابه لتعليم أمّته. ثم جهود الصحابة والتابعين وتبعهم إلى أن نأتي إلى عصرنا وفتح مدارس(3) لتحفيظ القرآن الكريم، ووضع مادة القرآن الكريم في المدارس المختلفة.. إلخ. بفضل هذه الجهود الجبّارة وصل متن القرآن إلى كل بقاع الأرض بدون أي تغيير. لا يوجد نقص أو زيادة كلمة واحدة في متن القرآن الكريم. وللإشارة إلى كثرة القرّاء وإلى كثرة العباد الذين شاركوا في حفظ القرآن وإلى شرف أعمالهم وشكر سعيهم عبّر الله تعالى بأن قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(4).

ونرى نفس الاستعمال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2)﴾(5). فنون العظمة تلمح إلى المؤمنين الذين استخدمهم الله في هذا النصر ويشير إلى تشريفهم. قال الآلوسي في تفسير هذه الآية: "وأقول : يمكن أن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاها سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط"(6).

2- الإشارة إلى عالَمية القرآن الكريم: ولما كان القرآن أُنزل لهداية الناس جميعًا، ولمّا كان النبي أُرسل إلى كافة الناس بشيرًا ونذيرًا، ينبغي أن يُشار إلى أكبر الحوادث هذه في تاريخ البشرية بأسلوب العظمة. مثل

---

(1) الآية 9 من سورة الْحِجْر.

(2) كان النبي صلى الله عليه وسلم يخصص يومًا في الأسبوع للنساء لأجل التبليغ والتذكير. عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ، قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ، فَاجْعَلْ لَنَا يَوْماً مِنْ نَفْسكَ. فَوَعَدَهُنَّ يَوْماً لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ، فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلاَثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلاَّ كَانَ لَهَا حِجَاباً مِنَ النَّارِ». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ وَاثْنَيْنِ فَقَالَ «وَاثْنَيْنِ».(صحيح البخاري، العلم 35.)

(3) في الجمهورية التركية من بين البلاد الإسلامية مثلاً يوجد أكثر من إحدى عشر ألف مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم رسميًّا في نهاية سنة 2010.

(4) الآية 9 من سورة الْحِجْر.

(5) الآيات 1-2 من سورة الفَتْح.

(6) تفسير الآلوسي، ج:26، ص:91.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(1)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾(2).

وأيضًا خلق الإنسان وإقرار الملائكة بتفضيل الإنسان عليهم وعدم إقرار إبليس بفضل الإنسان وكونه عدوًّا للإنسان، حادثة عالمية؛ ولذلك ينبغي أن يُشار إليها بأسلوب العظمة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾(3)، وكذا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(4).

وفي الموضوعات التي تخص جميع البشرية فردًا فردًا تحسُن الإشارة إليها بأسلوب العظمة لإبراز تجلّي الربوبية العامة لله تعالى في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(5). قال محمد حمدي يازير في تفسير هذه الآية: "تُنْزَع الأرضُ من المفسِدين فيها، وتُؤْتَى إلى الصالحين أي المؤهَّلين لعمارة الأرض وللخلافة. أي يُكتَب البقاء للصدق والأمانة، وأما أهل الفساد فليس لهم حق البقاء مدَّة طويلة. ولقد أخبر الله تعالى في القرآن من بعد الزبور أن الوارثين للأرض هم أهل التوحيد المبتعدون عن الشرك والتفرقة والذين يحسنون ويتقنون أعمالهم"(6).

ونلاحظ في نفس الوقت أن هذه الآية الكريمة تجمع عدة خصائص لأسلوب العظمة في القرآن الكريم. أما **أولاً**: في نفس الآية أشار إليه بضمير المتكلّم وحده بأن قال ﴿عِبَادِيَ﴾ وأشار إليه بضمير المتكلم مع الغير بأن قال ﴿كَتَبْنَا﴾. **وثانيًا**: بين توصيف الله تعالى لذاته بنون العظمة وتوصيف عباده بالجمع ﴿الصَّالِحُونَ﴾ مطابقة لطيفة. **وثالثًا**: هذه الآية تتحدّث عن حادثة أبَدية ليست مقيَّدة بالزمان ولا بالمكان ما دام الإنسان موجودًا في الأرض.

3–تجلّي الأحَدية في الكثرة: أسلوب العظمة يلائم الخطاب القرآني الذي يخاطب أحيانًا كل فرد من أفراد البشر على حدة. كأن الله سبحانه يقول: "أنا الله سبحانه وتعالى حاضر حيث يوجد إنسان ويوجد مخلوق". ولا تخلو نقطة في الأرض من تجلّياته تعالى. وهو كما قال عز من قائل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(7). ولشرح هذه الحقيقة نمثّل بمثال: الشخص الذي ينظر إلى السماء ويرى فيها الشمس مشرقة يستدل على النهار ويقول بأن الشمس التي تضيء الكون واحدة. وأما إذا نظر في البحر والأنهار والمرايا المتنوعة مقابلة للشمس

---

(1) سورة القَدْرِ:1.

(2) سورة الدُّخَان:3-5.

(3) سورة الأَعْرَاف:11.

(4) سورة الْحُجُرَات:13.

(5) سورة الأَنْبِيَاء:105.

(6) محمد حمدي يازير، لسان الحق في تفسير القرآن الكريم، في تفسير سورة الأنبياء عند تفسير هذه الآية.

(7) الآية 29 من سورة الرحمن.

ورأى في كل قطرة تجلّيات الشمس وشاهد تجلّيات الشمس بعدد القطرات والمظاهر ويجد ضياء الشمس وحرارتها وألوانها بقربه يستطيع أن يشاهد وحدة الشمس متجلية في تلك المرايا ويستطيع أن يرتبط بالشمس مباشرة. وهذا النوع من التجلي نسمّيه بتجلّي الأحدية وهذا التجلّي يعبّر عن إرادة الله وقدرته ورحمته وعلمه وإحسانه واهتمامه وخطابه إلى عباده بأجلى صورة. وأسلوب العظمة أي الإشارة بضمير الجمع يُشعر كل إنسان بأن الله تعالى معه بتجلّياته الخاصة. وهذا لا يمنع تجلّياته لسائر مخلوقاته في نفس الوقت، بل هو يتجلّى لدى بلايين من خلقه في نفس الوقت. وبتعبير آخر نون العظمة يُشعر كلَّ مخاطَب بأنه معنيّ بهذا الخطاب خِصّيصًا مع سائر أبناء نوعه في نفس الوقت. وكلُّ هؤلاء المخلوقين يشكّلون عيال الله. ولْنمثّل لهذا النوع هذا المقطع من القرآن الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)﴾⁽¹⁾

وفعلاً شاهدنا في هذا المقطع من سورة ق شؤونات الربوبية والأحدية التي تملأ أرجاء العالم. وشاهدنا أيضًا أن أكثر الإجراءات الإلهية قد رُتّبتْ ترتيبًا وفي عشر مواضع عُبّرت عنها بـ"نون العظمة". وبذلك كُسيتْ تلك الشؤونات الخارقة بخلعة محتشمة: ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ أي السماء، ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ أي الأرض، و﴿أَلْقَيْنَا﴾ أي رواسي، و﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض، و﴿نَزَّلْنَا﴾ أي من السماء ماءً، ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ أي جنّات، و﴿أَحْيَيْنَا﴾ أي بَلْدَة. هذه الشؤونات كلّها كونيّة، أي لها بُعد كونيّ يَشمل كلّ معنيّ ولا يحتاج إلى شرحٍ لأن كلّ هذه الإجراءات أثناء السير الطويل مستمدّة من هداية الله ورحمته تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁽²⁾.

ومن أمثلة هذا النوع في تجلّي الأحدية في المواضع المختلفة آية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾⁽³⁾ هذه الآية تفيد عظمة الله متجلّية في خلقه تعالى للإنسان. وأكثر من هذا فالأحدية الإلهية تظهر في إحاطته تعالى في خلقه وتقديره وتصويره في بطن أمّه. وفي كل وسوسة من وساوسه فلا تتفلّت وسوسة واحدة من علم الله تعالى بين وساوس لا تُعدّ ولا تُحصى.

4-إعطاء الكلام تأثيرا قويًا: لأن هذا الأسلوب يدل على أن الشؤونات المذكورة مشهودة من قِبل شهود كثيرة. فلْنذكر هذا المقطع من سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (النَّبَأ:11)

---

[1] الآيات 6-11 من سورة ق.

[2] الآية 5 من سورة طه.

[3] الآية 16 من سورة ق.

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا(16)﴾(1)

وفعلاً نرى في هذا النجم الوجيز أن الله سبحانه وتعالى يتحدّث بأسلوب مشرق شامل عن خلقه لكل إنسان فرد فرد وجعْله الأرض فراشًا وإنزاله من السماء ماءً لإنتاج أرزاقهم وإخراجه البساتين والأشجار المثمرة من كلّ الثمرات. وتلك الإجراءات مشهودة من قِبَل بلايين من الناس في كل لحظة. وهذا الأسلوب يرسم هذه اللوحة بصورة ممتازة، وكأنه يقول: "أيها المخاطَبون، كما تشاهدون بأعينكم إنّا نحن حقّقنا كل هذه الأشياء بقدرتنا الأزلية والأبدية والمطلقة".

5-عجز الصيغ البشرية عن التعبير عن أفعاله تعالى: ورد في القرآن الكريم إسناد الأفعال إلى جميع الضمائر العائدة إلى الله تعالى مثل: "أنا"، و"أنت"، و"هو"، و"نحن"، و"أنتم"، إلاّ ضمير "هم". فمثلاً يقول تعالى:

- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(2).
- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(3)
- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(4)
- ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(5)

وأحيانًا نخاطبه تعالى قائلين:

- ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(6)
- ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(7)

وأحيانًا يُشار إليه تعالى بضمير الجمع للتعظيم:

---

(1) الآية 6-16 من سورة النبأ.

(2) الآية 56 من سورة الذاريات.

(3) الآية 72 من سورة الأحزاب.

(4) الآية 22 من سورة البقرة.

(5) الآية 2 من سورة الفرقان.

(6) الآية 127 من سورة البقرة.

(7) الآية 286 من سورة البقرة.

- ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100)﴾(1)

والضمير الوحيد الذي لم يُستعمل في حق الله سبحانه وتعالى هو ضمير الجمع "هم" الذي يدلّ على الجمع.

ويمكننا أن نجد في هذه الظاهرة الدلالةَ على أن حقيقة الألوهية لا يمكن أن تسعَها لغة البشر وصيَغها. فاللغة البشرية لو استعملت كل ما في وُسعها من الإمكانات لا تستطيع أن تعبّر عن صفاته وأفعاله وشؤوناته سبحانه وتعالى.

6-توظيفه تعالى لبعض الوسائط في بعض إجراءاته: الله سبحانه وتعالى يشير إلى تفرّده في خلق الفعل المعيّن بإسناد الفعل إلى ضمير ياء المتكلّم وحده. وأما إذا كان هناك واسطة في إيجاد الفعل يُسنده إلى نون المتكلّم مع الغير. ومن أمثلة ذلك نمثّل المقطع الآتي من سورة البقرة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(2)
- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(3)

قال بديع الزمان سعيد النورسي في تفسير هذه الآية: "إن ياء المتكلم وحده هنا مع ﴿نَا﴾ للمتكلم مع الغير في ﴿قُلْنَا﴾ في الآيات الآتية إشارة إلى أن لا واسطة في إيجاده وخلقه كما توجد في خطابه وكلامه. ومما يدل على هذه النكت آية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾(4)، فقال ﴿أَنْزَلْنَا﴾ بنون العظمة لوجود الواسطة في الوحي، وقال ﴿أَرَاكَ اللهُ﴾ مفردًا لعدم الواسطة في إلهام المعنى"(5).

7-إفادة أهمّية المفعول بجانب أهمّية الفاعل: لنذكر قوله تعالى كمثال لهذا المقصد: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(6). قرأ الإمام عاصم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بـــ"الياء" وأما بقية القرّاء بـــ"نون العظمة".(7)

---

(1) الآيات 99-100 من سورة المؤمنون.

(2) الآية 30 من سورة البقرة.

(3) الآية 35 من سورة البقرة.

(4) الآية 105 من سورة النساء.

(5) بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل، القاهرة 2009، ص:227.

(6) الآية 57 من سورة آل عمران.

(7) انظر: مفاتح الغيب، لفخر الدين الرازي، في تفسير هذه الآية.

قال ابن عاشور صاحب تفسير التحرير والتنوير عند تفسير هذه الآية ما نصه: "وأسند ﴿فَنُوَفِّيهِمْ﴾ إلى نون العظمة تنبيهًا على عظمة مفعول هذا الفاعل؛ إذ العظيم يعطى عظيمًا. والتقدير ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بدليل مقابله في ضدّهم من قوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[1] وتوفية الأجور في الدنيا تظهر في أمور كثيرة: منها رضا اللهِ عنهم، وبَركاته معهم، والحياة الطيبة، وحسن الذكر. وجملة ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ تذييل، وفيها اكتفاء: أي ويحبّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وقرأ الجمهور: ﴿فَنُوَفِّيهُمْ﴾ بالنون، وقرأه حفص عن عاصم، ورويس عن يعقوب، ﴿فَيُوَفِّيهُمْ﴾ بياء الغائب على الالتفات"[2].

8-إفادة التأكيد: أسلوب العظمة يفيد التأكيد كما في هذه الآية الكريمة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[3]. قال الآلوسي في تفسير هذه الآية ما نصه: "إظهار الرسول مضافا إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام والإشعار بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته صلى الله تعالى عليه وسلم محض البلاغ ولزيادة تشنيع التولي عنه والحصر في الكلام إضافي"[4].

وبذلك العرض الموجز حاولنا أن نبرز خصائص ونكت جمع العظمة في القرآن الكريم. ورغم استعمال هذا الأسلوب بكثرة فإنه لا يسبب في إيقاع شبهة الشرك في الاستعمال القرآني. فإننا في مقالنا هذا صنّفنا أمثلة أسلوب جمع العظمة في ثماني نكت. ولو استقصى المدقّقون جميع الأمثلة الواردة في القرآن مفصَّلة لاستطاعوا أن يجدوا المزيد.

والله الموفِّق.

---

[1] الآية 56 من سورة آل عمران.

[2] التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع (الطبعة التونسية)، تونس - 1997 م، ج: 3، ص:262.

[3] الآية 12 من سورة التغابن.

[4] تفسير الآلوسي، ج:28، ص:125.